من الجمالية الطبيعية إلى الجمالية العمرانية في الشعر الأندلسي

دة. زهراء تود
دكتورة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة محمد الخامس بالرباط
المملكة المغربية

الملخص:

يتناول هذا المقال التحول الجمالي في الشعر الأندلسي من الانبهار بالطبيعة الربانية إلى الافتتان بالجمالية العمرانية التي أبدعها الإنسان الأندلسي. ويبرز كيف أصبحت المدن والقصور والحمامات والبرك والتماثيل عناصر فنية ملهمة للشعراء، استدعوا من خلالها إحساسهم بالانتماء الحضاري والوجداني. كما يكشف المقال عن تفاعل الشعر مع المنجز العمراني بوصفه ثمرة لتلاقح حضاري عربي-إسلامي مع حضارات متوسطية قديمة، وعن الدور الذي لعبه الوصف الشعري في تخليد هذه المعالم، سواء في لحظة ازدهارها أو في سياق التحسر على أطلالها بعد اندثارها.

الكلمات المفتاحية: الشعر الأندلسي، الجمالية العمرانية في الأدب، وصف المدن والقصور، التلاقح الحضاري الأندلسي، الذاكرة الشعرية

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

لم تكن الطبيعة الأندلسية الربانية وحدها ملهمة الشعراء ومحفزهم على إبداع أشعار وصفية لها، وإنما افتتنوا كذلك بمعالم الحضارة الأندلسية العمرانية التي صنعتها أيادي الصانع الأندلسي وتفننت في صنعها وإنشائها، والتي ضاهت الرياض والحدائق والأنهار والمروج جمالا ورونقا. لقد تأثروا بها وسارعوا إلى وصفها وتخليدها عبر أشعار وصفية بارعة الدقة والتصوير. لقد عشقوها لأنها من جانب تعتبر ثمرة لتلاقح حضارة عربية إسلامية عريقة وحضارات رومانية وإغريقية وإيبيرية قديمة. ومن جانب آخر أصبحت مكونا من مكونات ثقافتهم، وحيزا من وجدانهم الذاتي والقومي والإنساني والعقائدي. فضلا عن ذلك أضحت مجالا خصبا لتوالد أفكارهم ورؤاهم، ومظهرا بهيا تستكين له أنفسهم، وتسرح فيه أرواحهم وخيالاتهم، وتتفتق من سحر جماله ملكاتهم الشعرية.

لقد بادر الأندلسيون منذ أول عهدهم بشبه الجزيرة الإيبيرية إلى استثمار كل ملكاتهم الفكرية والفنية والمهارية في إنشاء مدن ترفل بأجمل القصور والرياض والحدائق المزينة بأبهج البرك والنوافير، كما شيدوا المساجد الواسعة ذات الساريات الرخامية والثريات المذهبة والمنابر المصنوعة من خشب الصنوبر الرفيع، والجدران المنقوشة المكتوب عليها آيات من الذكر الحكيم. كل تلك المنشآت التي تتوفر عليها المدن أنشئت من أجل توفير الرفاه والمتعة للإنسان الأندلسي، وفتح الباب واسعا للشعراء للتنافس فيما بينهم بغية تخليدها بقصائد وصفية جميلة.

ولهذا خاض الشعراء الأندلسيون في وصف ما عاينوه من منشآت جميلة في مدنهم وتفننوا في استجلاء مباهج قصور الملوك والأمراء، وما تزدان به من أثاث فاخر ونوافر وما يحيط حدائقها من برك اصطناعية يسبح في مائها الإوز والبط، ويحوم في فضائها الطاووس المزهو بألوانه الساحرة، وتنشد أنواع الطيور فوق أفنان الأشجار الوارفة في رحابها أعذب الألحان وأصدحها.

وهكذا ومادام أن مجال الوصف العمراني الذي تطرق إليه الشعراء الأندلسيون واسعا، فإننا سنختار منه أكثر المظاهر العمرانية إيثارا عندهم والذي سكن وجدانهم وملك مشاعرهم وإحساساتهم، فجعلهم يتباهون به أينما حلوا وارتحلوا، ويستكينون في كنفه، ويشتاقون لرؤيته إذا أحجبته عنهم المسافات والسنون.

إن المدينة الأندلسية هي أولى المظاهر العمرانية التي استرعت باهتمام الشعراء فسارعوا إلى تخليد أشعار يصفون بها أجمل مآثرها من "المباني والقصور الجميلة من مثل الزهراء والزاهرة، وما يلحق بها من بساتين ومن على هيئة الأسود تقذف الماء من أفواهها... فمن ذلك قول محمد بن شخيص يصف الزهراء:

فاتـــــتْ محاســـــنُها مجهـــــودَ واصِـــــفها ... فـــــالقولُ كالسَّـــــكْتِ والإيجـــــازُ كالخطَـــــلِ
بـــــل فَضْـــــلها في مبـــــانِي الأرضِ أجمعِهـــــا ... كفضـــــل دولـــــةِ بانيهـــــا علـــــى الـــــدُّولِ
كـــــادَتْ قســـــيُّ الحنـــــايَا أن تضـــــارعَها ... أهلَّـــــةُ الســـــعدِ لـــــولا وصـــــمةُ الأفـــــلِ
تأَلَّقـــــتْ فغـــــذا نُقْصـــــانُها كمـــــلاً ... وربمـــــا تـــــنْقُصُ الأشـــــياءُ بالكمـــــلِ
كـــــم عشِـــــقينَ مـــــنَ الأطْيـــــارِ مـــــا فتِئـــــا ... فيهـــــا يـــــرودانِ مـــــنْ روضٍ إلى غِلَـــــلِ[1]

[1] – د إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، دار الشروق للنشر والتوزيع– عمان– الأردن، الطبعة الثانية 1997 ص 113-112

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كما يتذكرون فيها أحلى ذكرياتهم وأمتع مغامراتهم الشبابية الموسومة بالعشق والدعابة واللهو والمرح. فهذا ابن زيدون "يحن إلى قرطبة حنينا شديدا، ويشتاق إليها اشتياق الملتاع فهي ملهى صباه ومرتع صبابته وذكرى حبه ومستقر حبيبته..."[1] فأنشد من أجلها موشحة ضمنها معاني جديدة يقول فيها:

سَقى الغيثُ أطلالَ الأحبة بالحِمى

وحاكَ عليها ثَوْبَ وشْيٍ منمَّما

وأطلهَ فيها، للأزاهيرِ، أنْجُما

فكمْ رفَلَتْ فيها الخرائِدُ كالدُّمَى

إذِ العيشُ غَضٌّ، والزمانُ غلامُ

***

قَضيبٌ من الريحانِ، أثْمَرَ بالبدرِ

لواحظُ عينيهِ ملئْنَ منَ السِّحْرِ

وديباجُ خديهِ حكى رونقَ الخمْرِ

وألفاظُهُ في النطقِ كاللُّؤْلؤِ النَّثْرِ

وريقَتُهُ في الارتِشاف مدامٌ

***

سقى جنباتِ القصْرِ صَوبُ الغمامِ،

وغنَّ على الأَغْصانِ وُرْقُ الحمائِمِ

بقرطبةَ الغرَّاءِ، دارِ الأَكارِمِ

بلادٌ بها شَقَّ الشبابُ تمائِمِي

وأَنْجَبَنِي قومٌ هناكَ كرامُ2

لقد اختيرت هذه السطور من الموشحة الطويلة لتوضيح مكانة قرطبة الجميلة بريحانها وقصرها الذي يسقي جنباته الغمام، وأما باقي السطور الأخرى فتحكي ذكريات الشاعر الجميلة في رحاب أمكنتها البهيجة كجو في الرصافة وشاطئ النهر ومشهد عند العقيق وجسره.

– د مصطفى الشكعة، **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، دار العلم للملايين، 1979- بيروت- لبنان ص111.[1]

– فوزي خضر، "**عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون**"، الكويت 2004، ص 128.[2]

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتعتبر مدينة قرطبة المدينة الأجدر لمنافسة المدن المشرقية مثل بغداد خاصة منذ عهد عبد الرحمان الثاني "في روعة عمرانها وفي طمأنينة الحياة في ربوعها، وبلغت الأوج في الاتساع والتحضر أيام عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم حتى قال ابن حوقل حين زارها في خلافة الناصر (337) هـ: "وهي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع الغرب لها عندي شبه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما بدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محل وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق."[1]

ولم تكن قرطبة المدينة الوحيدة التي احتلت مكانة مرموقة في نفوس الشعراء واحتفظوا في أشعارهم ما كانت تزخر به من منشآت عمرانية بهية، فقد ملكت مدينة اشبيلية أو حمص كما كانوا يطلقون عليها حظوة عندهم كذلك، ومن بديع الأشعار التي نظمت حولها شعر ابن الحصن الذي "عندما أخذ بجمال أشعة الشمس تتناثر وراء الشرف صاح:

ذكرتـــــكِ يا حِمْـــــصُ ذكـــــرى هـــــوىً ... أمـــــــــاتَ الحَسُـــــــــودَ وتَغْنِيَتَـــــــــهْ
كأنَّـــــكِ والشـــــمسُ عنـــــد الغُـــــروبِ ... عـــــروسٌ مـــــن الحســـــنِ في أَعـــــلاهُ منْحُوتـــــهْ
غـــــدا النهـــــرٌ عِقْـــــدَكِ والطَّـــــودُ تاجَـــــكِ ... والشـــــمسُ في أعْـــــلاَه ياقُوتـــــــــهْ[2]

كما أن مدينة غرناطة أصبحت خاصة في عهد ملوك الطوائف ملهمة للشعراء بجمالها البديع، وقد أضفى قصر الحمراء وبعض المنتزهات والممرات والشوارع الجميلة رونقا عليها، دفع بالشعراء إلى تبويئها رتبة سامية تعلو بهاء على مدن مصر والشام والعراق. ومن الأشعار التي وصفتها كما يقول هنري بيرس أبيات لشاعر لم يذكر اسمه "استخدم في وصفها المعجم الخاص بالمدن في إسبانيا:

غرناطـــــــةُ مـــــــا لهَـــــــا نظـــــــيرٌ ... مـــــا مصـــــرُ مـــــا الشَّـــــامُ مـــــا العِـــــراقُ
مـــــا هـــــي إلاَّ العـــــروسُ تُجْلَـــــى ... وتلـــــك مـــــنْ جُمْلَـــــةِ الصَّـــــداقِ[3]

وإلى جانب تشييد المدن الواسعة والمتميزة بعمرانها الوظيفي الجميل، لم تفت فرصة تولي بعض الخلفاء والملوك الحكم حتى بادروا إلى تشييد صروح كبيرة لتخلد عزهم، ولتكون رمزا من رموز عظمتهم وقد أثثوها بالتجهيزات الفاخرة، وزينوا فضاءاتها بالبرك الاصطناعية والنوافير والتماثيل والرياض والحدائق الغناء والجداول التي تجري بمياه لا تنضب طيلة السنة.

وقد دفع الإحساس بالسمو بالعظمة حد الهوس عند عبد الرحمان الناصر إلى بناء قصر بالزهراء حتى يخلد به اسمه مثلما خلدت الأهرام في مصر الفراعنة، وكان يردد دائما أبياتا من الشعر قيل إنها تنسب إليه

---

[1] – د إحسان عباس. **تاريخ الأدب الأندلسي**. مس ص19– 20

[2] – هنري بيرس. **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**. مس ص 122

[3] – المرجع نفسه ص 132

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

هِمَمُ المُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ البُنْيَانِ
أَوْ مَا تَرَى الهَرَمَيْنِ قَدْ بَقِيَا وَكَمْ ... مَلِكٍ مَحَاهُ حَادِثُ الأَزْمَانِ
إِنَّ البِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُه ... أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّأنِ[1]

فالبناء العظيم يدل على السلطة، وقوة نفوذ من استطاع أن يشيده، والناصر أراد أن تخلد قصوره أمجاده على مر السنين، لهذا توسع في تجميل الزهراء " وجلب الماء إلى قصره من الجبل، واستدعى عُرَفَاءَ المهندسين والبنائين من كل قِطْرٍ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المنتزهات، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة، ثم اختار مدينة الزهراء، واتخذها لنزله، وكرسيا لملكه، وأنشأ فيها من المباني والقصور، والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظللة بالشباك"[2]، وهو " تخطيط لحديقة الحيوان في عصرنا الحديث، كما أنشأ أحواضا كثيرة للحيتان، قيل إن طعامها كل يوم بلغ اثني عشر ألف خبزة[3]"، فهذا يدل على عظيم مساحة أحواضه التي استغلها للأسماك، ولري الحدائق والبساتين.

ولطالما تنافس ملوك الطوائف على تشييد القصور والمباني، فقد شيد ملك طليطلة قصرا عظيما أسرف لإرسائه أموالا باهضة، واستفاد من مهارات مهندسين حكماء من بغداد فأنشأوا وسطه بحيرة تتوسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب، ينزل الماء من أعلاها ليسير في جنباتها.

ولكن جميع القصور التي بنيت أثناء العهد الأموي بالأندلس قد صارت أطلالا يتباكى حولها الشعراء بفعل الحروب التي شبت في البلاد خلال القرن الحادي عشر، ولم ينج منها سوى قصر واحد" يحمل اسما يومئ إلى خصائصه: "دمشق"...نجهل موقعه كما أن المؤرخين صمتوا عنه ولم يشيروا إليه، ولكن ابن عمار واتته الفرصة فتوقف به لحظة، ووضع بين جنباته حدا لحياته شريدا، وأمضى بين جنباته ليلة مع جماعة من أتباعه، وكانت فرحته غامرة حتى أنه لم يستطع أن يخفي تحمسه:

كُلُّ قصرٍ بعد الدمِشْقِ يُذَمُّ ... فيهِ طَابَ الجنى ولَذَ المَشَمُّ
منْظَرٌ رائِقٌ ومَاءٌ نَمِيرُ ... وثَرىً عَاطِرٌ وقصْرٌ أشَمُّ
بِتُّ فيه والليلُ والفجْرُ عندي ... عنْبَرٌ أَشْهبُ ومسكٌ أحَمُّ[4]

تعد قصور بني أمية وملوك الطوائف سوى ذكريات يتحسر عليها الشعراء، " قد ذكر المعتمد نفسه عدد هذه القصور، وقاعات الاستقبال، في أبيات تمتزج بالخواطر التنجيمية، نظمها أثناء أسره في أغمات:

---

[1]– مصطفى الشكعة، " **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**"، دار الملايين ، بيروت، ط 10، 2000 ص28.

[2]– ابن سعيد الغرناطي، "**المغرب في حلى المغرب**"، تحقيق د شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الثالثة 1978م ج1 ص 120.

[3]– أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 2012 ج 1 ص 578

[4]– هنري بيرس. مرجع سابق ص 117

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بكـــى المُبـــارَكُ في إثـــرِ ابـــنِ عبَّـــادِ   بكـــى علـــى إِثْـــرِ غـــزْلانٍ وآســـادِ
بكـــتْ ثُـــريَّاهُ لا غُمَّـــتْ كواكِبُهـــا   بمثـــلِ نـــوءِ الثُّـــريَّا الـــرَّائحِ الغـــادي
بكـــى الوحيـــدُ بكـــى الزَّهـــي وقُبَّتُـــهُ   والنهـــرُ والتَّـــاجُ كـــلٌّ ذُلُّـــهُ بادِي
مـــاءُ الســـماءِ علـــى أفْيائـــهِ دِرَرٌ   يا لُجَّـــةَ البحـــرِ دُومـــى ذاتُ إزْبَادِ[1]

وإلى جانب المدن والقصور لم يترك الشعراء الأندلسيون جانبا أبدعت فيه الهندسة المعمارية إلا وصفوه وافتتنوا به. فقد وصفوا التماثيل وتغاضوا الطرف في الغالب عن أنها أنصاب يحرمها الدين الإسلامي، للروم أو الفرس واعتبروها زينة تنمق قصور الملوك والأمراء فقط، وتفاديا لهجوم أصحاب الدين عليهم، كانوا يتحاشون نسبتها لصانع مسلم، ويعزونها للروم أو الفرس، كما في قول "ابن شخيص شاعر من نهايات القرن العاشر الميلادي:

ورَجْراجَـــةُ الأَرْدافِ مُـــورَّةُ الخُطَـــا   تُهَـــادِي وليســـتْ مـــن حســـانِ الأَوانِـــسِ
إلى أنْ تَـــرَى الشَّـــخصَ المُلَعْلِـــعَ مُوفيـــاً   علـــى الصَّـــنَمِ المـــوفَى علـــى بحـــر قـــادِسِ
ولمَّـــا نزَلْنـــا تحتـــه قَـــالَ صـــاحِبي   أعاجيـــبُ رومٍ أمْ أعاجيـــبُ فـــارسِ
فقُلْنَـــا لـــهُ خَفِّـــضْ ســـؤَالكَ والْـــتمسْ   نَجاتَـــكَ مـــن مَرْســـى البِحـــارِ الكَـــوائِسِ[2]

وإلى جانب التماثيل اهتم شعراء الأندلس بوصف الحمامات أيضا، وكانت تزخر بها البلاد خاصة الحمامات التركية منها، وكانت تتميز بالزخرفة، ويمكن أن توجد فيها تماثيل كما هو الشأن لحمام كان يستحم ويعالج فيه المعتضد صحبة حريمه وهذا التمثال من الرخام، يزين القاعة الرئيسية، وهذه المنشأة طبقا للشاعر ابن زيدون:

جـــاورتْ حَمَّـــةً مشـــيَّدةَ المَبْـــ   ـــنى، لـــبرْقِ الرُّخـــامِ فيـــه ومـــيضُ"[3]

وهذا الشاعر الأعمى التطيلي يعبر عن "الفرق الواضح بين حرارة خانقة والماء طريا في قوله:

لـــيس علـــى لهـــونا مزيـــدُ   ولا لحمَّامِنـــا ضَـــريبُ
مـــاءٌ وفيـــهِ لهيـــبُ نارٍ   كالشـــمسِ في ديمَـــةٍ تصُـــوبُ
وابْـــيَضَّ مـــنْ تحتـــه رُخَـــامٌ   كـــالثلجِ حـــينَ ابْتـــدا يـــذُوب[4]

– المرجع نفسه. ص 123[1]
–[2] المرجع نفسه. ص 294
– المرجع نفسه ص 300[3]
– المرجع نفسه ص 301[4]

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وكان للبرك الاصطناعية حظ كبير في وصف الشعراء. ورغم أن العرب عموما كانت على دراية بالبرك، وكانت تستخدمها لحفظ مياه الأمطار، فإن الأندلسيين أنشأوا بركا مزخرفة وفق جمالية تسر العين ليس فقط لحفظ مياه الأمطار، وإنما وظفوها هي والنوافير لتلطيف الهواء وتعديل حرارته، وللاستمتاع بصوت خرير مياهها. بل أصبحت في بعض المدن تشكل معلمة جميلة من معالمها. " فهذا الحميري يصف مدينة جيان الأندلسية، ويذكر من معالمها بركتها الكبيرة،" وجيان في سفح جبل عال جدا، وقصبتها من القصاب الموصوفة بالحصانة، وهي من أغر المدن، وشريف البقاع، وفي داخلها عيون وينابيع مطردة، منها عين ثَرَّة عذبة، عليها قَبْوٌ من بناء الأول، ولها بركة كبيرة عليها كان حمام الثور، فيه صورة ثور من رخام، فاستغلت البركة لحفظ ماء العيون والينابيع."[1]،

لقد أصبحت البرك تمثل خاصة عند ذوي الجاه والسلطة جانبا من ميلهم للترف والبذخ الفاحشين ومباهاتهم المفرطة. فعن المقري يروي أن" المنصور لما قدم عليه رسول ملك الروم، الذي هو أعظم ملوكهم في ذلك الزمان، ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم، فأمر المنصور أن يغرس في برك عظيمة ذات أميال نيلوفر على ما تسع، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب، وأربعة قناطير من الفضة، فسبكت قطعا صغارا على قدر ما تسع النيلوفرة. ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذي في البركة، وأرسل إلى الرومي فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة، بحيث يشرف على موضع البركة، فلما قرب طلوع الشمس جاء ألف من الصقالبة، عليهم أقبية الذهب والفضة، ومناطق الذهب والفضة، وبيد خمسمائة أطباق ذهب، وبيد خمسمائة أطباق فضة، فتعجب الرسول من حسن صورهم، وجمال شارتهم، ولم يدر ما المراد، فحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر، وكانوا يجعلون الذهب في أطباق الفضة، والفضة في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميع ما فيها. وجاؤوا به فوضعوه بين يدي المنصور، حتى صار كوما بين يديه، فتعجب النصراني من ذلك، وأعظمه وطلب المهادنة من المسلمين، وذهب مسرعا إلى مرسله، وقال له: لا تعاد هؤلاء القوم، فإني رأيت الأرض تخدمهم بكنوزها"[2].

ومن الأشعار التي وصفت البرك ما قاله ابن حمديس في بيتين يصف فيهما بركة قد حلت عليها أزهار النيلوفر يقول:

اشـــــــرَبْ علــــــــى بركـــــــة نَيْلُــــــوْفَرٍ ... مُحْمَـــــــــرّةِ النّــــــــــوّارِ خضـــــــــراءِ
كأنمــــــــا أزهارُهَـــــــــا أخرجــــــــــتْ ... ألســـــــنةَ النـــــــارِ مـــــــن المـــــــاءِ[3]

و"قال شعراء الأندلس يصف بركة عليها عدة فوارات:

غَضِـــــــبتْ مجَاريهـــــا فـــــأَظْهرَ غيْظُهُـــــا ... مـــــا في حَشَـــــاها مـــــن خَفِـــــيّ مُضْـــــمَرِ
وكـــــأنَّ نبــــــعَ المـــــاءِ مــــن جَنباتِهــــا ... والعـــــيْنُ تنْظُـــــرُ منـــــه أَحْسَـــــنَ منْظــــرِ
قُضـــــبٌ مـــــنَ البِلَّـــــوْر أَثْمَـــــرَ فَرْعُهـــا ... لَمَّـــــا انتَهَـــــتْ باللُّؤْلُـــــؤ المتحـــــدِّرِ[4]

---

[1]– شوقي ضيف،" **تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس**"، دار المعارف، 1979، ص 47.

[2]– الحميري ابن عبد المنعم، "**صفة جزيرة الأندلس**"، الطبعة الثانية 1408هـ 1988 م الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، لبنان ص 70.

– ابن حمديس. **الديوان**، تحقيق د. إحسان عباس، دار الصادر، بيروت، 1960، ص 5[3]

– د جودت الركابي. "**الأدب الأندلسي**"، مس ص 152[4]

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عندما توقفت مجاري الماء ورست في بركة، برز ما تخفيه من مناظر جميلة تسر العين وكأن فروعها قضب من البلور.

وفي مقطع شعري آخر "قال ابن وهبون من شعراء شرق الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة:

وبركـــــــــةٍ تزْهــــــــــو بِنَيْلُــــــــــوفر نســـــــــــيمهُ يُشـــــــــبِه رُوحَ الحبيـــــــــــــب

حـــــــــــتَّى إذا اللَّيــــــــــلُ دنا وقْتُـــــــــــهُ ومالــــــــــتِ الشــــــــــمسُ لِعَـــــــــيْنِ المغِيــــــــــب

أَطْبـــــــــقَ جَفْنَيْــــــــــهِ علــــــــى إلْفِــــــــهِ وغـــــــاصَ في المـــــــاءِ حِــــــذَارَ الرَّقِيـــــــب"[1]

يصف الشاعر النيلوفر في مستقره البركة وهو يضوع المكان برائحته الطيبة التي تحاكي رائحة حبيبة الشاعر، فهو يبدي طلعته الجميلة نهارا، ويخفيها ليلا حذار من يراقبه.

يبدو أن وصف البرك الاصطناعية لم تنل قسطا ملفتا من الوصف عند شعراء الأندلس مقارنة مع المائيات الأخرى، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن قليلا منهم من رآها داخل قصور الملوك والأمراء الذين استهوتهم الزخرفة والبساتين الغناء والبرك المرمرية والفسيفساء والتماثيل.

وإلى جانب البرك ورد وصف النوافير في الشعر الأندلسي بدرجة أكثر من وصف البرك، ولعل السبب يعود إلى أن تواجدها لا يقتصر على القصور فقط، بل تعداها إلى أمكنة متعددة كبيوت العامة والحدائق والمساجد، مما جعل العامة يشاهدونها ويستمتعون بتدفقات مياهها الصادرة من مخارجها، وبأشكالها الهندسية الملفتة المختلفة، وبالمواد التي شيدت بها. صحيح أن أجملها يوجد في مقرات الملوك والأمراء وذوي الجاه والسلطة الذين يحرصون على بنائها بمواد نفيسة كالذهب والرخام والمرمر، ويختارون لها أحسن الزخارف والأشكال، ولكن رغم ذلك، فقد استلهمت الشعراء وفتحت قرائحهم لإبداع أوصاف جميلة لها، وللتغني بمهارة الصانع الأندلسي، ولإثراء شعر الطبيعة الذي بلغ مرتبة عالية في العهد الأندلسي، وأصبح غرضا مستقلا إلى جانب الأغراض الشعرية الأخرى.

لقد اقترنت النوافير أساسا بالبرك خاصة في قصور الملوك والأمراء والوزراء، فكلاهما يهبان للعين متعة ونزهة وللنفس راحة وسكينة وبهجة، وبهما تزدان لوحة الجمال الأندلسي. وتتفتح زهور الشعر عبقة تضوع الأمكنة، وتسكر الأرواح بشداها وصورها الشعرية الجميلة. فهذا المأمون في قصره في مجلس استجمامي أمام بركة عليها نافورة على هيئة أسُد. فهذا المأمون بن ذي النون قد "احتبى، وأفاض الحُبا، والمجلس يروق كالشمس في أفقه، والبدر كالتاج في مفرقه، والنور عبق وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق، والدولاب يئن كناقة إثر الحوار، أو كثكلى من حر الأوار، والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد رشته أنداؤه، والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواها[2]، فقال:

يَا مَنْظَــــــــــراً إنْ نَظَــــــــرْتُ بَهْجَتَــــــــــــهُ أَذْكَــــــــرَنِي حُسْــــــــنَ جَنَّــــــــةِ الخُلْـــــــدِ

تُرْبَــــــــةُ مِسْـــــــــكٍ وَجَــــــــوُّ عَنْــــــــبَرَةٍ وَغـــــــيمُ نــــــــدّ وطــــــــشُّ مَـــــــا وَرِدَ

وَالمَــــــــاءُ كـــــــاللأزَوَرْدِ قَـــــــدْ نَظَمَـــــــتْ فِيـــــــهِ الــــــلالي فَـــــــوَاغِرُ الأَسْـــــــدِ

– المرجع نفسه، ص [1]156

أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**" مس ج4 ص [2]206

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كَأَنَّمَـــــا جَاثَـــــلُ الحُبَـــــابِ بِـــــهِ ... يَلْعَـــــبُ فِي جَانِبَيْـــــهِ بِالنَّـــــرْدِ
تَـــــرَاهُ يَزْهُـــــو إِذَا يَحِـــــلُّ بِـــــهِ ال ... مَـــــأْمُونُ زَهْـــــوَ الفَتَـــــاةِ بالعِقْـــــدِ
تَخَالُـــــهُ إِنْ بَـــــدَا قَمَـــــراً ... تَمَّـــــا بَـــــدَا فِي مَطَـــــالع السَّـــــعْدِ
كَأَنَّمَـــــا أُلْبِسَـــــتْ حَدَائِقُـــــهُ ... مَـــــا حَـــــازَ مِـــــن شِـــــيمَةٍ وَمِـــــنْ مَجْـــــدِ
كَأَنَّمَـــــا جَادَهَـــــا فَرَوَّضَـــــهَا ... بِوَابِـــــلٍ مِـــــنْ يَمِينِـــــهِ رَغْـــــدِ
لاَ زَالَ فِي رِفْعَـــــةٍ مُضَـــــاعَفَةٍ ... مُـــــتَمّم الرِّفْـــــدِ وَارِي الزَّنْـــــدِ."[1]

لقد أحس بالبهجة عندما وجد نفسه وسط جنة تربتها تفوح بالمسك، وجوها نسيم من عنبر وماؤها أزرق كاللازورد يخرج من نافورة على هيئة أُسد يخرج منها كاللآلئ، فيجعل المأمون الملك الشاعر يزهو كما تزهو الفتاة بالعقد حتى يحسبه الرائي قمرا يسني بالسعد وكأن الحدائق التي يملكها ألبسته شيمة المجد والرغد.

تعكس الأبيات نمط البذخ والترف والرفاهية التي تحكمت في ملوك الأندلس وامتلكت حياتهم. واستولت على مشاعرهم.

لقد اتخذوا من بديع القصور مساكن لهم، وزينوها بغريب الهندسة، وأثثوها بعجيب الأدوات، ونادر التحف والتماثيل، لتعجب الأنظار، وتطير بالخيال، ويتنافس الشعراء على وصفها، فقد كان المعتمد بن عباد يجلس على بركة له " والماء يجري من ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، والوزير أبو بكر ابن الملح عنده، فصنع الوزير فيهما عدة أنشد مقاطع بديعة منها"[2]:

وَمُشْـــعِلِينَ مِـــنَ الأَضْـــوَاءِ قَـــدْ قِـــرنَا ... بالمَـــاءِ وَالمَـــاءُ بِالـــدُّولاَب مَنْـــزُوفُ
لاَحَـــا لِعَيـــنيَّ كـــالنَّجْمَيْنِ بَيْنَهُمَـــا ... خَـــطُّ المَجَـــرَّةِ مَمْـــدُودٌ وَمَعْطُـــوفُ"[3]

لقد صور الشاعر مشهد الشمعتين المضاءتين وبينهما يتدفق الماء من خرطوم فيل مصنوع وقت حلول الليل البهيم وكأنهما نجمتان بينهما خط المجرة ممدودا ومعطوفا.

ولقد اتسع الخيال لدى الشاعر، وتعددت الصور أمامه من جمال ما شاهد، ومن عجيب ما رأى، فقال أيضا:

---

[1]– أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، 2012 ج 1، ص 564

[2]– أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 2012 ج 1 ص 645

[3]– الدولاب: الآلة التي تديرها الدابة ليستقى بها وجهاز لرفع الأثقال، وهو نوع من الملفاف، المعجم الوسيط ص 315.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

كَأَنَّمَا النَّارُ فَوْقَ الشَّمْعَتَيْنِ سَناً والمَاءَ مِن نفَذ الأُنْبُوبِ مُنْسَكِبُ
غَمَامَةٌ تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ جامِعَةٌ فِي جَانِبَيْهَا خُفَافُ البَرْقِ يَضْطَرِبُ[1]

وعلى وقع قطرات الماء وتساقطها، ونور الشموع يلعب بها النسيم، ما لبث الشاعر قليلا حتى أطربه ما يشاهد، ودفعه إلى الإنشاد والتصوير من جديد، فتمثلت هذه الصور أمام الشاعر بالسحاب، والبرق المضيء، فنور الشمعتين بسناء البرق، وفي سقوط الماء من الفيل بقطر السحاب.

لقد كثر عند ملوك الطوائف استخدام نوافير على هيئة حيوانات بجوار البرك، لتقذف الماء من أفواهها بطريقة عجيبة، وصنعة متقنة إليها.

وقال ابن عباد يصف فوارة، قد سلت لهم من صافي مائها سيفا، قد جرد من غمده، ليلمع لهم كأنه الفضة:

وَلَرُبَّمَا سَلَّت لَنَا مِن مائِهَا سَيفاً وَكَانَ عَنِ النَواظِرِ مُغمَدا
طَبَعتهُ لُجَيّاً فَذابَت صَفحَةٌ مِنهُ وَلَو جَمُدَت لَكَانَ مُهَنَّدا[2]

يشبه ابن عباد صفاء الماء، ولمعانه، وانحنائه عند اندفاعه من النافورة إلى البركة بالسيف الفضي، إلا أنه يذوب في صفحة الماء، ولو جمد في مكانه، لكان سيفا صقيلا.

للماء في أشكاله المختلفة عنصر جذب لجميع الحواس البشرية، فمن شرب منه روي، ومن استمع إلى خريره طرب، وتعجب من انسيابية حركته، ودقة جريانه. فهذا المعتصم بن صُمادح" يُعجب بانسيابية حركة الماء على البركة، ويشبه صفحة الماء بالسيف الذي قد سل من الغمد، وعلى هذه البركة نافورة تفور بالماء، كأنها مقلة زرقاء، بلغت أسمى آيات الحسن والجمال، وقد دار السقاة عليهم بالخمر، الذي تتطاير منه الفقاعات، كأنها الندى على ورق الورد، وكأنها الجمر في حمرتها، ولكنها باردة كنار إبراهيم الخليل.[3]

وفي وصف ابن حمديس لبركة في قصر بناه المنصور مقترنة بنوافير يقذف منها الماء فيحدث زئير أسُد تبدو رغم رسوها تتحرك يقول:

وضراغمٌ سَكَنَتْ عرينَ رئاسةٍ تركتْ خريرَ الماءِ فيه زئيرا
فكأنّما غَشّى النّضارُ جسومَهَا وأذابَ في أفواهِها البلّورا
أُسْدٌ كأنّ سكونَهَا متحرّكٌ في النفس لو وجدتْ هناك مثيرا
وتذكّرَتْ فتكاتِها فكأنّما أقعتْ على أدبارِها لتثورا

1– أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 2012 ج 4ص 263.

2– أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 2012 ج 3ص 263.

3– المعتمد بن عباد ، "**ديوان ابن عباد**"، تحقيق حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، الطبعة 3- 1421هـ 2000م، ص 29.

© المؤلفون. مرخّص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وتخالُهـــــا والشـــــمسُ تجلـــــو لونَهـــــا ... ناراً وألسُـــــنَها اللـــــواحسَ نـــــورا
فكأنّمـــــا سُـــــلّتْ ســـــيوفُ جـــــداولٍ ... ذابـــــتْ بـــــلا نارٍ فَعُـــــدْنَ غـــــديرا
وكأنمـــــا نســـــج النســـــيم لمائـــــه ... درعـــــاً فقـــــدر ســـــردها تقـــــديرا
وبديعـــــةِ الثّمَـــــرَاتِ تعـــــبُرُ نحوهـــــا ... عينـــــايَ بحـــــرَ عجائـــــبٍ مســـــجورا
شـــــجريةٍ ذهبيـــــةٍ نزعـــــتْ إلى ... ســـــحر يـــــؤثّر في النهـــــى تأثـــــيرا
قـــــد صَـــــوْجَتْ أغصـــــانَها فكأنّمـــــا ... قَنَصَـــــتْ لهـــــنّ مـــــن الفضـــــاء طيـــــورا
وكأنّمـــــا تأبى لواقـــــع طيرهـــــا ... أن تســـــتقلّ بنهضـــــها وتطـــــيرا
مـــــن كـــــلّ واقعـــــةٍ تـــــرَى منقارهـــــا ... مـــــاءً كسلســـــال اللجـــــين نميـــــرا
خُـــــرْسٌ تُعـــــدّ مـــــن الفصَـــــاح فـــــإن شـــــدَتْ ... جعلـــــتْ تغـــــرّدُ بالميـــــاه صـــــفيرا
وكأنّمـــــا في كـــــلّ غصـــــنٍ فضـــــةٌ ... لانـــــتْ فأُرسِـــــلَ خيطهـــــا مجـــــرورا
وتريـــــكَ في الصّـــــهريج موقـــــعَ قَطْرِهَـــــا ... فـــــوْقَ الزّبَرْجَـــــدِ لؤلـــــؤاً منثـــــورا
ضـــــحكتْ محاســـــنُهُ إليـــــك كأنّمـــــا ... جُعلـــــتْ لهـــــا زُهـــــرُ النجـــــوم ثغـــــورا[1]

لقد أبدع الشاعر ابن حمديس في وصف نافورة الأسُود التي أحال خرير الماء إلى زئير، والتي يخالها المشاهد بلونها المذهب وكأنها نار وما في نظر الشاعر إلا نور. كما أن الماء الذي يخرج منها يشبه بسيوف كالجداول تخرج من أغمادها فتذوب بالنار فتصير غديرا تجري مياهه وسط حديقة غناء تتغنى بأشجارها وطيورها المصنوعة من الذهب والفضة. وقد طار بخياله الجامح في عالم البديع، وليغوص في أعماق الصور الشعرية الجميلة المشكلة من الاستعارات والتشبيهات التي تسمو باللغة من تقريريتها.

خاتمة:

وهكذا إن اهتمام شعراء الأندلس بوصف المدن وقصورها وحماماتها ومنتزهاتها وغيرها مما صنعت أيادي صناعها المبدعين كان إضافة نوعية إلى وصف الطبيعة تميزوا بها، وأسسوا لشعر وصفي مستقل ولصور شعرية مستجدة أثروا بها الشعر العربي ككل.

[1]- أحمد بن المقري التلمساني، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة 2012 ج 1 ص 493.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- ابن حوقل، صورة الأرض، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت.
- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصره الذهبي، ترجمة: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر السيادة، دار الثقافة، بيروت.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة.
- حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار النهضة العربية، القاهرة.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ابن زيدون، ديوان ابن زيدون، تحقيق: يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/